يبطن مضمونا جديدا ، هو استهداف التحرر من العسف الطبقي جنبا الى جنب الاستقلال عن السيطرة الاجنبية . واذ أبرز عبد القادر ياسين ما جرى من التمايز الاجتماعي في المرحلة الاخيرة ، فقد ربط به أن أحد أسباب انحسار الثورة الوطنية تعود الى افتقار القيادة الى البرنامج الاجتماعي الذي يوحد المطالب الطبقية بالمطلب القومي العام، ويرسم صورة للمستقبل الذي يناضل الشعب من أجل انجازه . وزادت ضرورة التمسك بمثل هذا البرنامج اليوم ، بعد أن أصبح الكفاح ضد الاستعمار مرادفا للكفاح ضد الرأسمالية في أذهان الجماهير العربية ، وبعد أن أقيمت في بعض البلاد العربية نظم أعلنت في وضوح انها تعمل من أجل الاشتراكية، وبعد أن ظهر المعسكر الاشتراكي العالمي كحليف وفي ثابت للقوى الوطنية العربية .

ويثير منهج الكتاب بعض الموضوعات التي تستحق أن يفرد الباحثون دراسات متأنية أخرى لها . وقد يكون أهمها في نظري تبيان السمات الخاصة للاقتصاد والمجتمع الفلسطينيين قبل الاحتلال البريطاني ، وتراثها التاريخي . ولقد كانت الاوضاع ـ كما ذكرها الكاتب ـ تتصف عموما بالتخلف ، وهذا صحيح . ولكنه كان تخلفا خاصا ، متميزا عن التخلف المصري مثلا في تلك الفترة . والدليل على ذلك ما نراه من تأثير العشائرية على تكوين القيادات الوطنية الفلسطينية وعلى مسار الحركة الجماهيرية ذاتها ، وهي سمة غير موجودة في التاريخ المصري الحديث . ومن أين أتت هذه العشائرية ، وكيف امتزجت بشبه الاقطاع ؟ هذا سؤال سوف تساعدنا الاجابة عليه للوصول الى فهم أدق للحركة الوطنية الفلسطينية .

وكذلك تستحق المواقف المزدوجة لطبقتي كبار الملاك والبورجوازية الفلسطينية دراسة أوسع . فما من شك في أن أشباه الاقطاعيين سعوا في الفترة المبكرة الى الاستقلال السياسي ، وان قبلوا ان يكون مبتورا . وتصرفت البورجوازية أيضا بطريقة مشابهة بعد ذلك . ولا أظن أن تلك المواقف المعارضة للاستعمار ـ هينة كانت أم عنيفة ـ عادت الى مجرد المناورات السياسية ، بل كانت تعبيرا عن مصالح اقتصادية واجتماعية لهذه الطبقات. وفي اعتقادي ان البحث في هذه النقطة سوف يساعد على رسم تكتيك اجتماعي أوضح للثورة الفلسطينية .

وأخيرا ، فعلاقة المثقفين العرب بالطبقات الاجتماعية الرئيسية امر يحتاج الى تفصيل وايضاح . واكد عبد القادر ياسين في أكثر من موضع أنهم كانوا يعبرون عن البورجوازية ، ولكني أشك في الصحة التامة لهذا التبسيط . فلنا مثلا أن نعتبر من المثقفين عددا كبيرا من صغار رجال الدين أو ذوي الثقافة « الشرقية » المستمدة من التراث الاسلامي ، وكانوا أقرب الى البورجوازية الصغيرة ، والفلاحين بصفة خاصة (مثال ذلك حركة القسام) .

ومهما كان الامر ، فقدفتح عبد القادر ياسين بكتابه الطريق لما سار عليه من منهج علمي قيم . ونأمل أن ينتهل رواد اخرون مادة مستمرة من الذخر الثري الذي يمثله تاريخ فلسطين .

احمد صادق سعد